

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

- ٤ -

الديانة المصرية - التوفيق بين الديانة والفلسفة

ان ذبوع عقيدة تأليه الملك أو حلول روح القدس في جسده الذي حدثناك عنه في الكلمة السابقة قد خلق أمام العقل المصري مشكلة معقدة عويصة يمكن أن تعتبر اللبنة الأولى من بناء الفلسفة المصرية ، وأن تعد محاولة حلها أقدم المحاولات الفلسفية التي عرفها تاريخ العقل البشرى ، لأن عهدا يصعد في سلم الماضي أكثر من ستة آلاف سنة ، وأين من هذه الفلسفات الأخرى التي لا يتجاوز أقدمها بضعة عشر قرنا قبل المسيح ؟ تلك المشكلة التي نشأت عند المصريين من تأليه الملك هي : « إننا نشاهد أن الملك يموت كما تموت عامة الناس فكيف يموت الإله الذي أولى صفاته الخلود ١٩ » .

لم تكد هذه المشكلة تأخذ مكانها في الحياة الفكرية المصرية حتى وجد المتفلسفون الأولون لها حلا وهو أن فرعون لا يموت كما يموت الناس ، وإنما حين يعجز جسمه المادى عن النشاط العملى يخرج منه السر الإلهى أو الروح القدس ، ليحل في جسم ابنه الشاب الممتلئ قوة ونشاطا . وإذا فروح « هوروس » هي التي تحكم في كل هذه الأجساد المختلفة المسماة بالفراعنة والتي أطلق على كل جسد منها اسم خاص في الظاهر لحسب ، ولكن هذا الجواب لا يشفى غليل المتفلسفين الباحثين عن خفايا الكون وأسرار الوجود ، لأنهم لا يكادون يتلقون هذا الجواب حتى يصطدموا بالتقاليد الدينية التي تصرح بأن فرعون وهو في قبره بعين ابنه على الحكم وينصحه في المواقف الحرجة . ومن هذا تنشأ مشكلة فلسفية أخرى وهي « كيف تقولون إن روح (هوروس) تغادر جسم فرعون المائت بعد مجزئه عن النشاط إلى جسم ابنه الشاب الشبيط ثم

والفن في عرضها ، ولاغرو إذ كانت تلك نظرة نقاد العربية إلى الخيال أن قالوا إن أعذب الشعر كذبه ، والحق أن أعذب الشعر أصدقه ، وأجود الخيال أكثره اشتيالا على الحقيقة وغزارة آثار الخيال في الأدب الانجليزي ترجع لا شك إلى اختلاف مناظر الطبيعة في إنجلترا وتعدد أحوال الجو ، ثم هي ترجع إلى اتساع أذهان الانجليز باقتباسهم حضارة أوروبا ومساهماتهم فيها ، وإلى الكشف الجغرافية العظيمة التي عاصرت نهوض الأدب الانجليزي ، وهي ترجع أيضا إلى اطلاع الانجليز على الأدب اليوناني الخافل بروائع الحوادث والأساطير ، المملوء بأشعار الملحم والدرامات ، فقد كان لشعراء الانجليزية وكتابتها من ذلك معين لا يفتى ، وكان الاطلاع على التراث الكلاسي بمثابة كشف جغرافى آخر واطلاع على عالم ثان غير هذا العالم المعهود ، مما أطلق الأذهان إلى غايات الخيال ، وكان للأدب العام في ذلك أثره أيضا وترجع ضالة حظ الأدب العربى من الخيال الصحيح السامى ، وكثرة ما به من آثار التخيل الزائف ، إلى نزعة الجمود التي كانت تسوده وتقره دائما على محاكاة الأقدمين واحتذاء الأدب الجاهلى ، وهذا بطبيعته المتبدية ويثته الصحراوية التي ترعرع فيها ، أدب أولى قليل الحظ من الخيال كثير الالتزام للواقع الحاضر ؛ هذا إلى اشتغال الأديب بمدح ذوى السلطان واجتهادهم في تخيل كل منقبة وإضافتها إليهم ؛ أضف إلى ذلك أن الأدب العربى لم ينفع كما انتفع الأدب الانجليزي بأدب الاغريق ، فنجبت عنه تلك العوالم الزاخرة بالحقائق والخيالات . وقد اطلع العرب على فلسفة الاغريق لثاكي غير واحد من فلاسفتهم جمهورية أفلاطون بتخيل المدينة الفاضلة ، ولو اطلعوا كذلك على أدبهم لاستفادوا منه فائدته الختومة ظل الأدب العربى مكبوح الخيال مائزما للواقع مؤثرا للإيجاز متشبها بالرواية التاريخية المستندة ، وترك الخيال الواسع للعامية يسبحون في عوالمه التي تستهوى النفس الانسانية ، فجالوا في نواحي القصص يودعون أفكارهم على ما بها من قصور ، وآمالهم على ما بها من سذاجة وما يشوبها من شهوات الحس ، وثقافتهم على ما يتخالفها من جهل واضطراب ، وجاء الأدب العربى الفصيح في أزهر عصوره مشتملا على ضروب من التخيل الفج لا يستسيقها لب ، ولا يقرها فن ، مشتملا بجانب ذلك على وجدانيات صادقة وحكم وأمثال رائعة موجزة ، هي خير ما في الأدب العربى من لباب الفكر والشعور ، فالأدب العربى يبلغ قمة مجده بما فيه من آثار الحكمة ، لا بما يحويه من صور الخيال

فخرى أبو السعود

وكان عالم أوزيريس ، في أول عهد المصريين بهذه العقيدة عالماً قاسياً محفوفاً بالأشواك والمخاطر حتى على فرعون نفسه ، إذ كانت روحه لا تمر إلى مملكته أوزيريس ، إلا بعد أن يجتاز عدة عقبات ومصاعب تنشأ من أسئلة دقيقة ومحاسبات عسيرة يوجهها الحارس المكلف بمحاسبة المارة ، وكانت هذه المملكة في عقيدة المصريين تحت الأرض وكان يجب أن يمر إليها الفراعنة ، ومن في حكمهم ، ليستمتعوا بعد اجتياز عقباتها بالنعيم المقيم في عالم الخلود .

ولما رأى الكهنة أن فرعون يقاسى قبل الوصول إلى امبراطورية أوزيريس ، أهوالاً صعباً أشاروا بأن تلي عند دفن المومياء الملكية التعاويذ التي تلتها إيزيس ، على جسم زوجها أوزيريس ، فأعادته إلى الحياة ، أو أن تكتب هذه التعاويذ وتوضع مع المومياء في مقرها الأخير ، ليعود فرعون في سهولة إلى الحياة ليجتاز العقبات إلى مملكة الآخرة ولما ارتقت الديانة المصرية تطورت هذه الشعيرة فانتقل فرعون من مملكة أوزيريس إلى مملكة رع ، كبير الآلهة وترك الأولى لأفراد الشعب الذين يجب أن يجتازوا الصراط جميعاً إلى المملكة وأن يمر بهم ما كان في العهد القديم خاصاً بفرعون . أما فرعون فقد أصبح في العقيدة الجديدة قيناً بأن يذهب إلى المملكة الساطعة كما كانوا يسمونها ، وكان يستعين على الصعود إليها في السماء تارة بجناحي هوروس ، وأخرى بجناحي توت ، وثالثة بسلم يحضره إليه الآلهة ، وهو سلم طويل يتصل أوله بمملكة أوزيريس ، تحت الأرض وتلامس قمة مملكة رع ، في السماء فإذا وصل إلى هذا المقر الإلهي ظل فيه زمناً يحمل أسم هوروس ، ويستمتع بامتيازاته ، ثم ارتقى بعد ذلك إلى منزلة رع ، نفسه وامتزج به واتحد فيه اتحاداً كلياً . ومنذ أن ظهرت في الديانة المصرية هذه الصلة بين رع ، وفرعون حصل فيها تطور وانقلاب عظيم إذ أصبح رع ، هو الذي يطوف بالمملكة ليلاً ثم يتنasha قبل حملها بالملك المقبل . وهكذا أصبح رع ، هو الأب المباشر لفرعنة الدنيا وهو الكل الأعظم الذي يتلاشون فيه في الآخرة هل نشأ التطور الديني الجديد من الفلسفة أو الفلسفة هي التي نشأت من هذا التطور ؟

تعودون فتقولون : إن فرعون بعد رحيله إلى العالم الآخر يظل متصلاً بابنه يعاونه وينصحه ؟ فالتصريح الأول يفيد أنه ليس هناك إلا شخصية روحية واحدة تغادر الجسم الضعيف العاجز إلى الجسم القوى النشط ، والتصريح الثاني يفهم منه أن فرعون بعد موته تبقى له شخصية روحية مستقلة تنصح الملك الجديد وتعاونه . ولا ريب أن هذا تناقض ظاهر يدعو العقول الفلسفية إلى البحث والتنقيب ، وهذا هو الذي كان بالفعل ، إذ بدأت الروح الفلسفية تسرى بين البيئات المصرية المفكرة منذ ذلك العهد المتغلغل في غيابات الماضي فاهتدت إلى حل خيل إليها أنه مقبول من الوجهة العقلية ، وهو أن هوروس ، له عدة شخصيات إحداها الشخصية الدنيا التي تتقمص جسد فرعون ؛ وثانيها الشخصية العليا الحاكمة في عالم الآخرة ؛ وثالثها الشخصية الوسطى وهي التي تقوم بنصيحة الشخصية الدنيا في جسدها الجديد . وبهذا تحل المشكلة ويزول التناقض .

لم يكن المصريون كغيرهم من الأمم القديمة يعتقدون أن الجسم الفرعوني بعد مغادرة الروح إياه يصبح جيفة كأجسام بقية البشر والحيوانات ، وإنما كانوا يرون أن حلول روح القدس فيها تكسبها شرفاً خالداً وبركة أبدية . ولهذا فبعد ما يبقى جسم الملك محفوظاً في قبره تنتشر السعادة ويعم الخير في مصر ، وهذا هو الإدراك الأول الذي كان يعاصر مبدأ المملكة القديمة ، أما بعد هذا العهد قليل فقد انتقل تقديس الروح من دائرة الملوك الضيقة إلى جميع الأرواح البشرية وأخذ المفكرون يترقون في الروحية حتى بلغوا فيها الأوج الذي سنشير إليه فيما بعد .

وقد كانت الروح تعنى بأن يترك في الجسم فرجة ، لتستطيع العودة إليه متى شامت الرجوع من عالم أوزيريس ، إلى عالم الدنيا ، ولكن هذه العودة لم تكن محبوبة عند الروح إلا إبان صلاحية الجسم لها ، فإذا बीست المومياء ، وتقلص جلدتها وانكششت أعصابها وفقدت هذه الصلاحية تأخرت الروح عن المجيء إلى الجسم ، وهذه خسارة كبرى كانت أحد الدوافع التي حملت المصريين على الدقة في صنع التماثيل بعد التحنيط .

يكن هذا التاسوع هو كل ما عند المصريين من آلهة وإنما كان هيئة رئاسة عليا لجمهور كبير من صغار الآلهة وأنصافها

المذهب الثاني

ذهب جماعة من العلماء نخص منهم بالذكر الأستاذ « ألكسندر موريه » المستمصر الكبير إلى أن التاسوع لم يكن هو الأصل كما فهم العلماء الآخرون ، وإنما اكتشف العقل المصري القوي المتمدين تسع قوى من قوى الطبيعة هي الشمس والهواء والفراغ والأرض والسما والنيل والخصوبة والجذب والصحراء ثم أسندوا إلى هذه القوى كل أفاعيل الكون ، ولما رأوا أن هذا التفكير الفلسفي ليس في مثاول أذهان العامة لم يسعهم إلا أن يؤطروا هذه القوى ، وأن يطلقوا عليها أسماء مقدسة لتفهمها الجماهير هي نفسها حين رأت هذا التقدير العظيم من جانب العلماء لتلك القوى أولته تأويلا دينياً يتفق مع عاطفتها الفطرية التي لا تقدر إلا المعبودات ؛ وفي كلتا الحالتين يكون العقل المصري العلي هو الذي أوجد التاسوع ، لا التاسوع هو الذي أوجد التفكير في قوى الطبيعة كما يذهب الفريق الأول ،

(ينج)

محمد غريب

الحاكم بأمر الله

واسرار الدعوة الفاطمية

بقلم محمد عبد الله عنان

وهو أتم وأوفى بحث كتب عن الحاكم بأمر الله ، وشخصيته العجيبة ، وحياته المدهشة ، واختفائه المؤسسي ؛ وعن نظم الخلافة الفاطمية ورسومها ومواكبها الباذخة ؛ وعن أسرار الدعوة الفاطمية ومجالس الحكمة الشهيرة

مجلد في نحو ثلاثمائة صفحة من القطع الكبير مطبوع بدار النشر الحديث أجود طبع ومزين بالصور التاريخية

منه ٣٠ قرشا والبريد أربعة قروش لدخول القطر وستة للخارج

ويطلب من المؤلف بترائه بشارع الهادي تمرة ٢١ ومن مجلة الرسالة ومكتبة النهضة بشارع المدايق ومن المكتبة التجارية ببول شارع محمد علي ومن سائر المكتبات الأخرى

اختلف الباحثون من العلماء في هذه النقطة في الإجابة على هذا السؤال اختلافاً شديداً ، فأجاب الفريق الأول وهم الأكثرية العظمى من الباحثين بأن الأصل هو التطور الديني وأن الفلسفة ناشئة عن هذا التطور ووليدة احتكاك الأفكار حوله كما حدث في مسألة تعدد شخصيات روح « هوروس » التي أسلفنا لك الحديث عنها . وأجاب الفريق الثاني إجابة مبينة لرأى الفريق الأول تمام المبانية فقررُوا أن التفكير الحر هو الذي سبق إلى إنشاء نظريات فلسفية لم يجد الدين بداً من أن يتجه نحوها ويصبغها بلونه . وإليك بيان هذين المذهبين :

المذهب الأول

لما سرت عقيدة امتزاج الآلهة التي ترجع بالتعدد إلى أصل واحد وقالت بالثالوث المكون من : « أوزيريس » و « إيزيس » و « هوروس » الثلاثة الراجعين إلى واحد ، ثم تطورت من التثليث الموحّد إلى التسعيع الموحّد كذلك ، فقالت بتسعة آلهة يرجعون في النهاية إلى إله واحد ، حدث اضطراب في الأفكار ، وتناقضت العقيدة مع العقل وكاد يحدث بينهما تناقض خطير لولا أن أخذ المفكرون يفلسفون ويسلكون الممكن والمستحيل من السبل ليوفقوا بين العقل والعقيدة ولكنهم أخضعوا العقيدة للعقل ، بل وللعقل الواقعي أو الطبيعي حيث قرروا أن الماء هو الكاؤوس ، المهبم أو العنصر الأول المشتمل على جميع ما في الكون من عناصر ، وأنه كان ولا شيء معه لا آلهة ولا أناسي ، وأول من ظهر من الماء هو « رع » الذي لم يلبث أن تركز وكون الشمس ، ذلك الكوكب العظيم الذي من فعله ظهر إلهان عظيمان هما : « سو » أي الهواء و « تيفتيه » أي الفراغ . ومن اجتماع هذين الإلهين تولد إلهان آخران هما : « جيب » أي الأرض و « نوت » أي السماء ، ومن اجتماع هذين الإلهين أيضاً نشأ أربعة آلهة كل اثنين منها على طرفي تقيض من الآخرين ، فأما الزوج الأول فهو « أوزيريس » أي النيل ، و « إيزيس » أي الأرض المخصبة ؛ وأما الزوج الثاني ، فهو « سيت » أي الصحراء ، و « تيفتيس » أي الأرض القاحلة ، وهذه هي الآلهة التسعة الراجعة إلى واحد والتي كان المصريون يطلقون عليها : « I. Enneade » أي التسع أو التاسوع المقدس . ولم